حكاية الحية في شعر النابغة الذبياني

دراسة تحليلية

إعداد

الدكتور / دخيل الله محمد الصحفي

أستاذ مشارك – قسم البلاغة والنقد

جامعة أم القرى – مكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً أما بعد

فقد عرف كل متذوق للأدب متبصر فيه ما للشعر الجاهلي من مكانة رفيعة وقيمة نفيسة؛ فهو المورد الرائق الذي قدم لنا صفوة كلام العرب؛ وقد قصدت هذه الدراسة إلى الوقوف على جانب من جوانب هذا الكلام الرفيع؛ وهو غرض الوصف؛ وهو غرض واسع طالما خاض فيه الشعراء يصورون كل ما يحيط بهم في بيئتهم.

لقد تعددت الموضوعات التي تناولها الشعراء الجاهليون من خلال الوصف واتسعت حتى أننا لا نستطيع إحصاء كل ما كتب تحت هذا الغرض؛ ذلك أن الشاعر الجاهلي لم يبق صورة من صور بيئته إنساناً أو جماداً أو حيواناً إلا وقد ألقى عليه نظرة وصهر صورته في قالب بيانه وليس هذا الأمر المستغرب؛ وقد أشار كثير من النقاد القدامى إلى ذلك وبينوا العلة في كثرة

آداب. العدد 22 ديسمبر 2004.

دوران صور الوصف في أشعارهم فهذا ابن طباطبا يقول: "أعلم أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها وأدركه عيانها، ومرت به تجاربها وهم أهل بر، صحونهم البوادي سقوفهم السماء فليست تعدوا أوصافهم ما رواه منها وفيها ...فإذا اتفق لك من أشعار العرب التي يحتج بها تشبيه لا تلقاه بقبول، أو حكاية تستغربها فأبحث عنه ونقر معناه فإنك لا تعدم أن تجد تحته خبيئة إذا عرفتها عرفت فضل القوم بها، وعلمت أنهم أرق طبعا من أن يلفظوا بكلام لا معنى تحته. وربما خفي عليك مذهبهم في سنن يستعملونها بينهم في حالات يصفونها في أشعارهم فلا يمكنك استنباط ما تحت حكاياتهم ... فإذا وقفت على ما أرادوه لكف ما تسمعه من ذلك عند فهمك"[1] .

ولقد كان من بين تلك الموضوعات العديدة التي تناولها الشعر الجاهلي من خلال غرض الوصف؛ وصف (الحية)؛ فقد أسلمنا ديوان الشعر الجاهلي نماذج عديدة يصف فيها الشعراء الجاهليون هذا الحيوان في مواضع عديدة وإن كانت نادرة قليلة إذا قيست بما حظيت به صور حيوانات أخرى كالثور أو الحمر الوحشية وغيرها من حيوانات؛ ولعل تلك الندرة التي اتصفت بها صورة (الحية) في ورودها في صفحة القصيدة الجاهلية قد دعت إلى الاهتمام بها وتقصي دلالتها والإيحاء الذي تبثه في ثنايا النص الشعري.

وقد تفاوت الشعراء الجاهليون في إيرادهم لصور الحية في قصائدهم فمنهم من أورد صورة الحية من خلال تشبيه قصير مقتضب؛ ومنهم من تناولها من خلال صياغة مختلفة تمثلت في قالب يقدم صورة الحية كواحدة من شخصيات تتفاعل داخل إطار تتنامى فيه الأحداث وهو إطار (الحكاية) ومن الغريب أن هذا النمط في الوصف المتمثل في استثمار صورة الحية لم يرد إلا عند شاعر واحد هو النابغة الذبياني؛ وفي قصيدة واحدة فقط؛ وقد أورد له شراح ديوانه

---

[1] معيار الشعر 5-16.

آداب. العدد 22 ديسمبر 2004.

قصيدة تصل إلى العشرين بيتاً كانت جل أبياتها مشغولة بالحديث عن الحية في قالب الحكاية؛ وهي بذلك تمثل نمطاً غريباً وفريداً في هذا الباب؛حيث أننا لم نجد شاعراً جاهلياً أورد صورة الحية عبر هذا النمط المطول غير النابغة الذبياني؛ فهل كان السبب في ذلك التميز ما عرف عن قدرة النابغة الشعرية لا سيما وهو شاعر فحل مقدم بين الشعراء؛ وكأن هذه القصيدة إحدى دلائل قدرته الشعرية التي يقدمها ليثبت مكانته ويتفرد بها عن باقي الشعراء؛ أم ثمة سبب آخر أنتج لنا هذا الأنموذج الشعري المتميز في ديوان النابغة؛ هذا ما تحاول هذه الدراسة إظهاره وتجليته فيما يأتي من صفحات.

مناسبة القصيدة:

ذكر شارع الديوان في عرضه لهذه القصيدة أنها نظمت فيما كان بين النابغة وبين يزيد بن سنان المري بسبب المحاش" ويعاتب بني مرة على استثارهم وتحالفهم عليه وعلى قومه واجتماع قومه عليه مع طلبه حوائجهم عند الملوك وكان النابغة محسوداً كثيراً وكان عفيفاً شريفاً[1]. وذكر الجاحظ عند تقديمه لهذه القصيدة أنها متصلة المناسبة بما ذكر في ديوانه فقال " لقد تحالفت قابل مرة فتحلفوا عند نار فدنوا منها وعشوا بها حتى محشتهم فسموا المحاش وكان سيدهم المطاع فيهم أبو ضمرة يزيد بن سنان بن حارثة [2]، وفي خبر آخر رواه الأصمعي في نسخة الأعلم من الديوان، قال: " كان يزيد بن حارثة محش المحاش وهم بنو خصيلة بن مرة، وبنو نشبة بن غيض بن مرة علي يربوع بن غيض بن مرة رهط النابغة فتحالفوا على بني يربوع على النار فسموا المحاش لتحالفهم على النار، ثم أخرجهم يزيد إلى

[1] ديوان النابغة – تحقيق: أبي الفضل 153.
[2] الحيوان 4/471

بني عذرة بن سعد وكلهم يقول إن النابغة وأهل بيته من عذرة، ثم من ضبة، فقال يزيد ذلك يعيرالنابغة ويعرض به:

إني امرؤ من صلب قيس ماجد   لا مدع نسباً ولا مستنكر[1]

وقال أبو جعفر في شرحه للديوان " قال النابغة وكانت ابنته تحت يزيد بن سنان فطلقها، وقال ما طلقها إلا أنها لم تكن منا، وإنما هي من قضاعة، لأن يزيد بن سنان من عبس والنابغة عذري وعذرة تنتسب في قضاعة"[2]

وبالرجوع إلى كتب التراجم والأنساب نجد أن نسب النابغة متأصل في بني ذبيان، فلم يذكر كتاب من كتب التراجم أو الأنساب إلى اتصال نسب النابغة ببني عذرة، وهذا يجعل من خبر أبي جعفر الذي أورده في شرحه لديوان الشاعر دون تعليق عليه خبراً غريباً، حتى أننا نجد الشيخ الطاهر محقق الديوان "بشرح أبي جعفر" لا يأخذ بهذا الرأي في عرضه لنسب الشاعر بل ينسبه إلى بني ذبيان وقد أكد غير مصدر هذا الاتجاه؛ منها ما جاء في كتاب الأغاني حيث ذكر أبو الفرج أن النابغة هو (زياد بن معاوية بن ضباب بن جناب بن يربوع بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن عطفان بن سعد بن قيس بن غيلان بن مضر ... وهو أحد الشعراء الذين غض الشعرمنهم، وهو من الطبقة الأولى المقدمين على سائر الشعراء) [3]

وعرف غبن قتيبة الشاعر فقال : (هو زياد بن معاوية بن ضباب بن جابر بن يربوع بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن يغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن غيلان

---

[1] ديوان النابغة — تحقيق أبي الفضل 102.

[2] ديوان النابغة — بشرح الطاهر عاشور 135.

[3] الأغاني 3/11

[1] (

كما ذكره البغدادي وأشار إلى نسبه ينتهي إلى سعد بن ذبيان، وقد أكد أبوالفرج في غير موضع من كتاب الأغاني صحة نسب النابغة في بني ذبيان،ومن ذلك ما نقله عن أبي عبيدة في خبر هروب النابغة من النعمان على أثر قصيدته المتجردة التي وصف بها زوجة النعمان؛ قال قال أبو الفرج: "قال أبوعبيدة : قيل لأبي عمرو : أفمن مخافته – يقصد النعمان – امتدحه وأتاه بعدهربه من أم لغير ذلك؟ فقال : لا لعمر الله ما لمخافته فعل إن كنا لأمنا من أن يوجه النعمان له جيشاً، وما كانت عشيرته لتسلمه لأول وهلة، ولكنه رغب في عطاياه وعصافيره"[2] . فلا يعقل أن يكون المقصود بقوله: (وما كانت عشيرته لتسلمه لأول وهلة) بني عذرة لا سيما وقد نسبه أبو الفرج في موضع سابق إلى ذبيان.[3]

ويتضح مما تقدم صحة نسب النابغة لبني ذبيان، وقد أكد النابغة ذلك في غير موضع من ديوانه منها قوله في رواية ابن السكيت مما لم يرد في نسخة الأعلم [4]

أسائلتي سفاهتها وجـــهلا ... على الهجران أخت بني شهاب
فإما تنكـــــري نسبي فإني ... من الصهب السبال بني الضباب
ضباب بني الطؤالة فاعلميه ... ولا يغررك نأيي واغترابـــــــي
وإن منازلي وبـــلاد قومي ... جنوب قسا هنالك فالهضـــاب

ويتبين لنا مما تقدم أن خبر انتساب النابغة إلى بني عذرة خبر واه ولا تقيمه حجة، ولعل

---

[1] الشعر والشعراء 164/1.
[2] أنظر شرح أبيات مغني اللبيب 97/1
[3] الأغاني 28/11
[4] ديوان النابغة – تحقيق: ابي الفضل 199

السبب في ادعائهم أن النابغة من بني عذرة يرجع إلى أمور عدة منه:

أولاً: لقد كان النابغة شاعراً محسوداً من قومه بل هو محسود بين القبائل جميعها، والحظوة التي نالها الشاعر عند الملوك وسادة القوم كانت مبعثاً للضغينة التي أحاطت به بين أقرانه من الشعراء وأبناء قبيلته بني ذبيان ولا عجب في ذلك فقد كان النابغة سيداً في قومه بني نشبة بل هو سيد بني ذبيان على الإطلاق، وتأمل ذلك في قوله[1]

حولي بني ذبيان لا يعصونني وبنو بغيض كلهم نصاري

وعندما يقول النابغة إن بني بغيض كلهم أنصاره فإنه يعني بني ذبيان قاطبة لأن بغيضاً الذي ذكره الشاعر هو شيخ بني ذبيان وهو أبو ذبيان الذي تنسب إليه القبيلة؛ والشاعر عندما يفاخر بذلك لا يفاخر بمجد لا يستحقه وإنما هي حقيقة ثابتة تجدها متمثلة في كثير مما ذكر عنه في ديوانه، تأمل قول الشارح براوية الأعلم : "حين أغار النعمان بن وائل بن الحلاج الكلبي على بني ذبيان فأخذ منهم وسبى سبياً من عطفان وأخذ عقرب بنت النابغة فسألها من أنت فقالت : أنا بنت النابغة، فقال لها: والله ما أحد أكرم علينا من أبيك ولا أنفع لنا عند الملك ثم جهزها وخلاها، ثم قال والله ما أرى النابغة يرضى بهذا منا فأطلق له سبي غطفان وأسراهم" [2]

ثانيا: عند مراجعة النصوص التي سقناها نجد أن تزعم المحاش لطرد النابغة إلى بني عذرة والتشكيك في نسبه كان يزيد بن سنان بن أبي الحارث زوج ابنة النابغة، وينتهي نسب يزيد إلى غيظ الذي ينتهي نسب النابغة إليه أيضاً فهما أي النابغة ويزيد ابنا عمومة (انظر المخطط التفصيلي لنسب النابغة) وقد كان يزيد سيد بني نشبة وقد كان شاعراً وقد عرفه المرزباني

---

[1] ديوان النابغة – تحقيق: شكري فيصل 104.

[2] أنظر جمهرة النسب 416، 423.

بقوله (هو ذو الرقيبة المري وهو المقشعر وهو الأشعر)[1] ؛ فإذا نظرنا إلى مكانة يزيد في قومه بني نشبة وإلى كونه شاعراً من شعراء القبيلة[2] وتلقيبهم له بالأشعر نجد مدعاة الضغينة والحسد واقعة بينه وبين النابغة لا محالة، فإذا كان هو سيد قومه فإن النابغة سيد بني ذبيان على الإطلاق، وإذا كان هو الشاعر المجيد، فإن النابغة هو شاعر الملوك الأكثر شهرة والأقوى شكيمة فإذا نظرت إلى هذين السببين وجدت ذلك أدعى للحسد والضغينة، وقد أجمعت الكثير من المصادر كما تقدم على أن النابغة كان شاعراً محسوداً.

أما عن سبب نسب الشاعر إلى بني عذرة على وجه التحديد فقد كان للعلاقة الوثيقة التي تربط الشاعر ببني عذرة، وقد أكثر من مدحهم في ديوانه، وقد كان النابغة وفياً محباً للرجال الأفاضل، وقد ربطت بينه وبين بني عذرة علاقة قوية تظهر ملامحها في مواضع عديدة من الديوان منها ما ذكره الشارح أن النعمان أراد أن يغزو بني حن حرام وهم من عذرة، وذلك أن ابن الأشعث، وهو هوذة بن أبي عمرو العذري كان يفضل على النعمان وقد كانت بنو عذرة قبل ذلك قتلوا رجلاً من طيئ يقال له: أبو جابر، أخذوا امرأته وغلبوا عل وادي القرى، وكان كثير النخل، فلما أراد النعمان بن الحارث غزوهم نهاه النابغة عن ذلك، وأخبره أنهم في حرة وبلاد شديدة، فأبى عليه، فبعث النابغة إلى قومه يخبرهم بغزو النعمان، ويأمرهم أن يمدوا بني حن ففعلوا، وهزموا غسان، وحووا ما معهم، وأسلموا لبني مرة ابن عوف" [3]؛ وخذ لذلك مثالاً آخر قول النابغة يمدح هوذة بن أبي عمرو العذري.

---

[1] معجم الشعراء 426.
[2] جمهرة النسب 417.
[3] ديوان النابغة – تحقيق: أبي الفضل 98.

وقال ابن الأعرابي وهو أحد بني حن بن عذرة [1]:

ويل أم خلة ماجـــد آخيته ... كان ابن أشفة غير قيل الباطل

كان ابن أشفة طيباً أثـــوابه ... عفــا شمائلـــه غزير النبائـــل

يهيب الجواد بسرجه ولجامه ... والعنس تخطر باليماني الكامل

أثني على ذي آلا عذرة إنه ... قد كان قدماً قبل قيل الباطل

رب الحجاز سهولها وجبالها ... أجـــلها من إنسها والخابـــل

وغير ذلك أمثلة كثيرة تظهر مدى إجلال الشاعر لبني عذرة ولعل ذلك كان تعيير بني ذبيان له بقوة موالاته لبني حن بصورة لا ينبغي أن تكون إلا للقبيلة، ولذلك كانت بني عذرة أقرب القبائل في تفكير بني ذبيان التي يحق لهم أن يدعوا نسب الشاعر إليهم، ولذا نجد النابغة لا يتحرج من أن ينسب إلى بني عذرة ويراهم أهلاً لكل مكرمة وهذا ما يصوره قوله: يرد على يزيد بن سنان بن أبي حارثة:

جمع محاشك يا يـــزيد فإنني ... جمعـــت يربوعاً لكم وتميما

ولحقت بالنسب الذي عيرتني ... .وتركت أصلاً يا يزيد ذميما

عيرتني نسب الكرام وإنمـــا ... فخر المفاخر أن يعـــد كريما

حدبت علي بطون ضنة كلها ... إن ظالماً فيهم وإن مـــظلوما

لولا بنو عوف بن بهثة أصبحت ... بالنعف أم بني أبيك عقيما[2]

فانظر إلى قول الشاعر (لحقت) وما يشعر به من أنه لم يكن أصلاً من بني عذرة وإنما ألحق بهم فقبل هذا الإلحاق. وانظر إلى قوله (وتركت أصلاً) وذكره لكلمة أصل منكرة وما يشعر به

---

[1] المصدر السابق 195.

[2] الديوان 471/4

هذا التنكير من أن أصله ينتمي إلى قبيلة ذبيان وأنه قبل أن يترع عنه هذا الأصل لأنه يجمعه برجال أمثال يزيد ومن محشوا المحاش معه وكأنه يترفع عن أن تجمعه بهؤلاء قبيلة واحدة، كما أن هذا يجري على عادة العرب، وقد كان الرجل منهم إذا نسب إلى قبيلة ما أكد هذا في قوله وكأنه بذلك يرد المكيدة على من ادعى عليه ويشعره بأن هذا لا يؤثر فيه ولا يناله منه؛ ونخلص من هذا إلى أن نسب النابغة إلى بني ذبيان نسب صحيح لا شك فيه خاصة أنك لا تجد مصدراً من مصادر التراجم وأنساب الرجال يشير إلى غير هذا.

نص القصيدة

ألا أبلغنا ذبيان عـــني رســالة فقد أصبحت عن منهج الحق جائرة
أجدكم لم تزجروا عـــن ظلامــة سفيهاً ولم ترعوا لذي الــود آصرة
فلو شهدت سهم وأفناء مــالك فتعذرني مــن مرة المتناصـــرة
لجاؤوا بجمــع لا يرى الناس مثله تضاءل منه بالعشي قصـــائره
ليهنئ لكـــم أن نفيتم بيوتنا منذ عبيدان المحـــلى باقـــره
وإني لألقى من ذوي الضغن منهم وما أصبحت تشكو من الشجو ساهرة
كما لقيت ذات الصفا من حليفها وكانت تديه المـــال غبا وظاهره
فقالت له: أدعـــوك للعقل وافراً ولا تغشيني منك بالظلم بـــادره
فواثقها بالله حتى تـــراضيا فكانت تديه المال غبا وظاهـــره
تذكـــر أني يجعل الله جـــنة فيصبح ذا مـــال ويقتـــل واتـــره
فلما توفى العقـــل إلا أقـــله وجارت به نـــفس عـــن الحق جائره
فلمـــا رأى أن ثمر الله ما له وأثل موجودا وســـد مـــفاقـــره
أكـــب على فأس يحـــد غرابها مذكرة من المعـــاول باتره

فقام لها من فوق حـــجر مشيد ... ليقتلها أو تخطئ الكـــف بادره
فلما وقاها الله ضربة فأســـه ... وللبر عين لا تغمض ناظـــره
تندم لما فاته الدخل عـــندها ... وكانت له إذ خاس بالعهد، قاهره
فقال : تعالي نجعل الله بيننا على ... ما لنا أو تنجزي لي آخـــره
فقالت: يمين الله أفعـــل إنني ... رأيتك مسحـــوراً يمينك فاجره
أبى لي قبر لا يزال مقابـــلي ... وضربة فأس فـــوق رأسي فاقره

التحليل:

برغم أن هذا البحث مهتم بتحليل حكاية الحية في شعر النابغة، وبرغم أن هذا المقصود قد انحصر في قصيدة واحدة للنابغة على الصورة المثلى للحكاية إلا أنه من الواجب تناول القصيدة التي وردت فيها حكاية الحية كاملة لاتصال هذه الحكاية بما قبلها وما بعدها، قال الأعلم في مناسبة القصيدة: (فيما كانبينه وبين يزيد بن سنان المري، بسبب المحاش ويعاتب بني مرة على استئثارهم، وتحالفهم عليه وعلى قومه، واجتماع قومه عليه، مع طلب حوائجهم عند الملوك وكان النابغة يحسد كثيراً، وكان رجلاً عفيفاً شريفاً).

وقد افتتح الشاعر قصيدته بقوله: (ألا أبلغا)واستخدامه لكلمة (ألا) يدل على أن الشاعر مقبل في الحديث على أمر جلل لأن هذه الأداة تعرف بأداة الاستفتاح فكأن الشاعر يستفتح قلوب سامعيه وعقولهم وينبههم إلى أهمية ما يلقيه على مسامعهم، ثم أن الشاعر قال : (أبلغا) فوجه الحديث إلى بني ذبيان عبر وسيط بينهم وبينه وهذا يدل على أن هذه القصيدة قد قيلت بعد نفيه من بني ذبيان، كما أن استخدامه للفعل "أبلغ" في صورة المثنى يدل على أهمية المضمون حيث كلف أمر نقله إلى الاثنين دون الواحد وهذه عادة جارية عند الشعراء وليس

بعيد عنا قول امرئ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ***** بسقط اللوى عند الدخول فحومل

فالشاعر يخاطب صاحبيه ويستفتح كلامه بالأمر لهما فإنما ينبه إلى مقبل على حديث يستجلب الأسماع ويستأثر الأنفس. وقد تبين هذا في قول النابغة في الشطر الثاني من البيت الأول، حيث بين لنا سبب ذلك الاهتمام والتأكيد عندما قال (فقد أصبحت عن منهج الحق جائرة) ليربط ذلك بما جاء في البيت الثاني من سخرية شديدة تعكس مرارة في نفس الشاعر سببها ما فعل به بنو ذبيان من طرد وإبعاد وتشكيك في نسبه، وقد كان المحامي والمدافع عنهم وقاضي حوائجهم. وانظر إلى الاستفهام في قوله : (أجدكم)والمعنى أكان هذا أمراً مقصوداً عندكم أن تفعلوا ما فعلتم فكأن الشاعر إضافة إلى استنكاره لفعلهم ينظر إليهم نظر المتعجب الذي لا يتوقع أن يكون مثل هذا الفعل من أمثالهم، ثم أنظر إلى قوله (لم تزجروا عن ظلامة) بتنكير ظلامة والتنكير هنا للتصغير والتحقير وهذا يفسر معنى التعجب عنده ذلك أن قومه قد وصلوا إلى درجة من انعدام الوفاء لا يستطيعون أن يزجروا ظالمًا عن أقل الظلم (ظلامة) فكيف يكون حالهم مع أكثره، ثم إن هذا الظلم لم يكن من رجل له عقل وحلم يسوسه، وإنما كان من سفيه، وقد وضع في مقابل هذه الصورة (عجزهم عن رد الظالم السفيه) عدم رعايتهم لذي الود فكأنهم بذلك عدموا كل الخير فلا هم يردون سفيهاً عن قبيح، ولا هم يراعون الود لصاحب العهد والآصرة. ولذلك نجد النابغة يصل كلامه هذا بما يؤكده فيقول : (فلو شهدت سهم وأفناء مالك) ما فعلت بي بنو مرة لعذرتني. ذلك أن معنى قوله : (فعذرتني من مرة المتناصرة) أي لأجل ما فعلت بي مرة المتناصرة. لقد دل جواب الشرط الذي يليه على هذا المعنى المذكور وأكده أيضاً فقرر الشاعر على أن نصرة بني سهم ومالك له ستكون مؤكدة ولا ريب فيها، وأنها سوف تتمثل في جيش يتضاءل إلى جانبه أعظم

الجبال، ولذلك قال : (يتضاءل منه بالعشي قصائره) وهو جبل عظيم. لقد ساعد صوغ الكلام في البيتين الأخيرين من خلال جملة الشرط، على تأكيد المعنى وإظهار مدى إحساس الشاعر الذي وقع عليه وإنه مما لا يقبل حتى عند من هم مقربون من خصومه، لينتقل بعد ذلك لأسلوب جديد على مدى تأثره بفعل قومه به وذلك حيث يقول :

ليهني لكم أن قد نفيتم بيوتنا   منـــد عبيدان المحلى باقـــره

وهذه السخرية الواضحة في قوله موصولة بما سبقت الإشارة إليه في قوله : (أجدكم) وكأن الشاعر حتى بعد نفيه وإخراجه من بني ذبيان ما زال يستعر بنار الغضب التي أنتجها ظلم قومه له. ولذلك نجده يضرب المثل في حاله مع قومه بقصة رجل اسمه عبيدان وقد كان عبداً لرجل من عاد وكان يورد إبله أول الناس ثم غلب عليه رجل أقوى فحلأه أي منعه من ورد الماء [1]؛ وهذا معنى قوله (مند عبيدان المحلى باقره) والباقرة جماعة البقر وتأمل قوله : (قد نفيتم بيوتنا) ونسبته النفي إلى البيوت دون الرجال كأنه يقول لقومه إذا كنتم غيبتم منازلي عن أراضيكم فإن مآثري وأمجادي فيكم لا تغيب، وهي باقية لا يحجبها نفي ولا يمحوها إبعاد، فإن العظيم يبقى عظيماً وإن جار عليه الزمن، ولذلك ضرب المثل بقصة عبيدان التي نحي عن الورد بعد ما كان يرد أولاً، ولكن ما زال في نفس النابغة ألم يعتصر ومرارة تمور، ولا عجب في ذلك وظلم ذوي القربى أشد مضاضة. ولذلك نراه لا يكتفي بما قدم من أبيات وصفت مقدار الظلم والجور فرأى يمثل ذلك من خلال حكاية تبين مقدار الظلم الواقع عليه، وهذه عادة عند العرب، وقد ذكر ابن قتيبة أن العرب كانت تضرب الأمثال على ألسنة

---

[1] أمثال العرب 178.

الهوام [1]. ولكن ما الذي دعا النابغة إلى أن يتمثل لظلم قومه له بهذه الحكاية الغريبة التي تخرج من إطار ما هو معروف في الشعر الجاهلي من حكايات تصاغ من خلال التشبيه فلم ير عند شاعر جاهلي واحد قصيدة يتمثل فيها بحكاية الحية التي تمثلها النابغة بخلاف ما هو معروف من تمثلهم في تشبيهاتهم بحكايات الحمر الوحشية وبقر الوحش والظليم وغير ذلك من حكايات ملأت دواوين الشعر الجاهلي، فما الذي دعا النابغة إلى مجانبة هذا الطريق والتمثيل بهذه الحكاية الغريبة التي لا تجد لها عند غيره مثيلاً، علماً بأننا نجد النابغة وقف أمام صورة الحية في ديوانه وقفات عديدة تدل على نظرة خاصة لهذا الحيوان، وكأنه يرى في الحية ما لم يره في غيرها. وعد مرة أخرى إلى القصيدة وتأمل كيف مثل الشاعر ظلم قومه له من خلال تشبيه تمثيلي شبه حاله مع قومه بحال الحية التي كانت تحمي وادياً من الأودية وتعطي جاراً لها مالاً يوماً بعد يوم حتى طمع فيها وأراد قتلها ليحوز على ما في جحرها. كيف لا وقد اعتمد النابغة في ذلك على قصة شائعة عند العرب وردت على لسان حية وهي " أن أخوين كانا في إبل لهما فأجدبت بلادهما، وكان بالقرب منها واد خصيب وفيه حية تحميه من كل أحد، فقال أحدهما للآخر يا فلان، لو أني أتيت هذا الوادي المكلئ فرعيت فيه إبلي وأصلحتها، فقال له أخوه ، إني أخاف عليك الحية ، ألا ترى أن أحداً لا يهبط ذلك الوادي إلا أهلكته، فقال : فوالله لأفعلن ، فهبط الوادي ورعى إبله زماناً ثم إن الحية نهشته فقتلته فقال أخوه : والله ما في الحياة بعد أخي خير، فلأطلبن الحية ولأقتلنها أو لأتبعن أخي ، فهبط ذلك الوادي وطلب الحية ليقتلها، فقالت الحية له: ألست ترى أني قتلت أخاك؟ فهل لك في الصلح فأدعك بهذا الوادي تكون فيه وأعطيك كل يوم ديناراً ما بقيت ؟

---

[1] الشعر والشعراء 161/1.

قال : أو فاعلة أنت ؟

قالت نعم ، إني أفعل ،فحلف لها وأعطاها المواثيق لا يضر بها، وجعلت تعطيه كل يوم ديناراً فكثر ماله حتى صار من أحسن الناس حالاً، ثم إنه تذكر أخاه فقال: كيف ينفعني العيش وأنا أنظر إلى قاتل أخي؟ فعمد إلى فأس فأخذها ثم قعد لها فمرت به فتبعها فضربها فأخطأها ودخلت الجحر ووقعت الفأس بالجبل فوق جحرها فأثرت فيه، فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار فخاف الرجل شرها وندم ، فقال لها: هل لك أن نتواثق ونعود إلى ما كنا عليه؟ فقالت : كيف أعاودك وهذا أثر فأسك. وهذا من مشاهير أمثال العرب[1].

لقد بدأ التشبيه بقوله :

وإني لألقى ذوي الضغن منهم **** وما أصبحت تشكو من الشجو ساهره

فانظر كيف وصفهم بذوي الضغن – أي الحقد – وهذا يتناسب مع حال الرجل الموتور في القصة الذي كان يحقد على الحية رغم إنه كان يفيد المال منها يوماً بعد يوم، ثم وقف الشاعر بجملة معترضة (وما أصبحت تشكو من الشجو ساهره) ليدل على مقدار الهم الذي أقض مضجعه وأسهر عينه من فعل قومه به ليعود مرة أخرى إلى التشبيه في قوله : (كما لقيت ذات الصفا من حليفها) وانظر إلى قوله : (وأني لألقى) وقوله : (كما لقيت) وتعمد الشاعر استخدام ذات الفعل، وكأنه بذلك يشير إلى تطابق القصتين في الحالة التي وقعت على المشبه والمشبه به.

---

[1] مجمع الأمثال 27/3.

لقد كان الشاعر مهتماً بأن يشير أول ما يشير إلى فضل هذه الحية على ذلك الرجل ولذلك تجده يقول في الشطر الثاني من بداية الحكاية (وكانت تديه المال غبا وظاهره) مهملاً الاستفادة من الجزء الأول من حكاية الحية مع ذلك الرجل حيث قتلت أخاه لأن هذا ليس هو المقصود وإنما المقصود الاستفادة من الجزء الثاني من تلك القصة وهو المتمثل في وفاء الحية لذلك الرجل مع إنها كانت قادرة على النيل منه. وفي ذلك بيان لزيادة شأن تلك الحية التي وفت برغم أنها لم تكن مضطرة للوفاء ولا مجبرة عليه، وإنما كان وفاؤها وفاء القادر المستطيع ودليل ذلك في قصتها مع الرجل أنها منعت عنه المال في نهاية الأمر، وهذا يصور حال الشاعر مع قومه أيضاً فعلى الرغم من أنه كان القادر والمستطيع والسيد فهيم إلا أنه جنح إلى مسالمتهم وقد طردوه.

وقد بدأ الشاعر في البيت التالي سرد حكاية الحية من خلال الحوار الذي جرى بينها وبين ذلك الرجل حيث قال :

فقالت له أدعوك للعقل وافياً ولا تغشيني منك بالظلم بادرة

والعقل هنا بمعنى الدية حيث عرضت تلك الحية على صاحبها الموتور لتوفيه دية أخيه وافية كاملة على أن تأمن جانبه؛ وانظر كيف عبر النابغة عن هذا المعنى بقوله : (ولا تغشيني منك بالظلم منك بادره) حيث عبر عن خوف الحية من إيذاء صاحبها لها من خلال الاستعارة التبعية في قوله : (لا تغشيني) حيث شبه ما يحدثه الظلم في النفس من أثر بالشيء الذي يغطي الشيء الذي فيخفيه، وانظر إلى اختيار الشاعر للفعل (يغشى) دون غيره وما يدل عليه من الرهبة والقسوة فضلاً عما تفيده هذه الكلمة وهي مرتبطة بالستر والحجب من معنى الغموض والالتباس وهكذا تكون نتائج الظلم مفاجئة غير متوقعة لأنك لا تستطيع أن

تتنبأ بما يكون من رد المظلوم. وانظر إلى التقديم والتأخير في الشطر الثاني حيث قدم الجار على المجرور (منك) وكان أصل الكلام (ولا تغشيني بادرة منك بالظلم) . لكن لما كان هم تلك الحية هي ما تلقاه من ذلك الرجل من شر – وليس الشر بذاته – وهو ما يهمها وإنما أن يكون من صاحبها لذلك قدم الجار والمجرور . وانظر إلى قوله (بادرة) أي (عاجلة) وكأنها أوحت أن تلك الحية كانت تستشعر نية الغدر من صاحبها إلا أنها رجت تأخير وقوع هذه النية وهذا ينعكس على إحساس النابغة حيال قومه وقد شعر أنهم أضمروا له الحقد وبدأوا يحيكون له المكيدة، وكأنه كان يتمنى أن يتأخر ما حصل من طرده ونفيه وإن كان مؤكداً أنه لا بد منه . وقد وصل الشاعر قوله : ذلك بالبيت الذي بعده :

فـــواثقها بالله حـــتى تراضيا   وكانت تديه المال غبا وظاهرة

وقد حرص الشاعر على أن يصوغ هذا المعنى من خلال فعلين جاءا على وزن المفاعلة (فواثقها) و (تراضيا) على وزن فاعلها وتفاعل ليدل على أن المواثقة والرضا كانا من الطرفين على السواء وقد دلت لفظة " حتى " على أن كلا الطرفين قد بلغ غاية رضاه من تلك الموافقة، لقد حرص الشاعر على هذه الصيغة في التعبير عن الموافقة ليدل على مبلغ ظلم من يخالفها فيما بعد ولكي يؤكد دلالة الفعل تراضيا ألحقه بالجملة الحالية :

فكانت تديه المال غبا وظاهرة

وانظر إلى هذا التكرار لهذا الشطر من البيت حيث سبق أن ذكره الشاعر بنصه في بيت سابق له وكأن الشاعر يحرص بذلك على إظهار فضل تلك الحية على صاحبها والتزامها بالمواثيق التي عقدتها وإيفائها بأداء العقل (الدية) وهذا يظهر أيضاً صورة النابغة مع قومه وهو الشاعر

الذي يقضي حوائجهم وينافح عنهم ويفك أسراهم و سباياهم وقصته مع النعمان بن وائل الحلاج شاهد من شواهد عديدة على ما ذكرنا.

وقد انتقل الشاعر بعد ذلك إلى الحديث عن مرحلة جديدة من مراحل تلك العلاقة التي جمعت الحية بذلك الرجل حيث يقول :

فلما توفى العقل إلا أقـــــــله وجازت به نفس عن الحق جائرة

وانظر كيف ربط الشاعر هذا البيت بسابقه من خلال وفاء التعقيب، ليدل على أن عطاء تلك الحية ووفاءها بدية أخي الرجل كان عطاء متصلاً لا انقطاع فيه ، لا تراخ استوفى فيه الرجل جل ماله حتى تمكن واغتنى فتغيرت نفسه وآلت حاله إلى الانحياز عن الحق واستعر طعمه. وانظر كيف عبر النابغة عن هذا المعنى حيث قال (وجارت) وفي كلمة الجور ما يذكر بحق الجوار الذي لم تحفظه بنو ذبيان فكيف يكون الحال بمن هو منهم سيد فيهم.

وانظر إلى قوله : (نفس عن الحق جائره) وهو يذكر بأول بيت في القصيدة حيث كرر كلمة الحق التي وقعت في الشطر الثاني (فقد أصبحت عن منهج الحق جائره) كما كرر كلمة جائره، وفي ذلك إشارة إلى مقدار ألم الشاعر وإحساسه بالظلم الذي أوقعه قومه عليه وهو من هو ؟ وقد أدى إلى تكرار هذا المعنى بلا ريب.

ولما كان ذلك الرجل قد استوفى عقله إلا أقله وبدء من نفسه ما أزاحها عن منهج الحق بدأ يبحث عما يبرر له قتل الحية والتخلص من يمينه التي حلف بها ليستولي بذلك على باقي كنزها الذي نعطيه منه (غبا وظاهره) وهذا ما يفيده قوله :

تذكر أني يجعــل الله جنة فيصبح ذا مال ويقتل واترة

فلما رأى أن ثمر الله ما له وأثل موجوداً وسد مفاقرة
أكب على فأس يحد غرابها مذكرة مـــن المعاول باترة

وانظر اتصال البيت الأخير بسابقه (فلما رأى) حيث جاء البيت الأخير مكملاً لسابقه وتأمل قوله : (ثمر الله ماله) بمعنى : كثر ؛ وقوله : (وأثل موجوداً) بمعنى : أبقاه، وحافظ عليه وقوله : (سد مفاقره) وكأنه سد كل باب ينفذ فيه الفقر إليه ، ومع أن معاني هذه الجمل متقاربة إلا أن الشاعر قد حرص على التفصيل فيها ليظهر مقدار الفضل وعظيم المنة التي تحول معها ذلك الرجل من فقير معدم إلى قادر مستطيع وكأن في هذا تعريضاً ببني ذبيان، وكيف أن عزهم بعز سيدهم ، وقد تستوحي من هذه الأبيات أن طرد بني ذبيان للنابغة كان بعد أن بلغ النابغة سناً متقدمة، انقطعت فيها صلته بالملوك ، وقلت فيها فائدته لقومه، فيجاروا عليه لما قل نفعه لهم ، وهذا المعنى يستوحى من قوله : (فلما توفى العقل إلا أقله) فكأن بني ذبيان لما بلغوا المبلغ في استفادتهم من شاعرهم وانتصاره انقلبوا عليه بعد أن قل اتصاله بذوي المنافع من الناس . لذلك رأى الطامعون وأصحاب الضغائن منهم ، ومنهم زياد بن سنان بن أبي حارثة وبنو خصيلة أن يصرفوا النابغة عن مقعد السيادة وكذلك كان حال الحية مع صاحبها الذي أكب على فأس مذكرة مصنوعة من الحديد الصلب فحدها ليقتلها وهي التي واثقته وأعطته جل ما هو مخبوء في جحرها .

فقام لها من فوق جحر مشي ليقتلها أو تخطيء الكف بادرة

وانظر إلى قوله (فقام لها) وما دل عليه الفعل متصلاً بفاء التعقيب من انعقاد القصد ووفرة الهمة للنيل من تلك الحية. وكيف اتبع الفعل بالجار والمجرور (لها) ليدل على اتجاه القصد لها دون غيرها والتأكيد على هذا المعنى بقوله : (ليقتلها) وانظر إلى قوله : (أو تخطيء الكف

آداب. العدد 22 ديسمبر 2004.

بادرة) حيث جاءت (أو) فيه بمعنى (إلا) إشارة إلى أنه كان يستبعد وقوع الخطأ ويتحرى الإصابة بدليل استعداده الذي دل عليه قوله : (فقام لها) وقد حرص الشاعر على أن يفصل بين قوله : (فقام) وقوله : (ليقتلها) بالجملة المعترضة (من فوق) لأنه يعلم أن أكثر الأمكنة أمناً وسلامة على الحية (جحرها) . وبذلك عرف أن الحية تفزع إلى الجحر عندما تستشعر خطراً يحوم حولها؛ وهي في فعلها ذلك تقصد جحراً بعينه؛ بل تقصد أي جحر، ولذا ضربوا المثل بها فقالوا : " أضل من حية ؛ لأنها خرجت من جحرها ثم وجدت جحراً دخلته ولم تعد إلى الأول[1]؛ وقد أشار الجاحظ إلى هذه الطبيعة في الحية بقوله: "ومن الحيوان ما له مسكن ومأوى، كالخلد والفأر والنمل والنحل ومنه ما لا يتخذ شيئاً يرجع إليه كالحيات لأن ذكورة الحيات سيارة، وإناثها إنما تقيم في المكان إلى تمام خروج الفراخ من البيض، واستغناء الفراخ بأنفسها" [2]؛ ومن هذا المعنى تشبيهه الإيمان بالحية في حديث إبراهيم بن المنذر عن أنس بن عياض حيث قال حدثني عبيد ابن خبيب بن عبد الرحمن بن حفص بن عاصم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها" [3]؛ فالمقصود هو إظهار طريقة أزرها إلى جحرها في وقت الفزع والخوف، والحاجة إلى الاحتماء؛ جاء في اللسان "أرزت الحية تأرز تثبت في مكانها وأرزت أيضاً لاذت بجحرها ورجعت إليه وفي الحديث: إن الإسلام ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها، قال الأصمعي: يأرز أي: ينضم إليها ويجتمع بعضه إلى بعض فيها. ومنه كلام علي بن أبي طالب — حتى يأرز الأمر إلى غيركم، والمأرز: الملجأ وقال الضرير الأرز: أيضاً أن

---

[1] المعاني الكبير 671/2.
[2] الحيوان 471/4.
[3] صحيح مسلم – شرح النووي – رقم الحديث 147.

تدخل الحية جحرها عن ذنبها فآخر ما يبقى منها رأسها فيدخل بعده، قال وكذلك الإسلام خرج من المدينة فهو ينكص إليها حتى يكون آخره نكوصاً كما كان أوله خروجاً وإنما تأرز الحية على هذه الصفة إذا كانت خائفة، وإذا كانت آمنة تبدأ برأسها فتدخله وهذا هو الإنجحار"[1].

ولقد دل التنكير لكلمة (جحر) في قوله: (ومن فوق جحر مشيد) على أنها طلبت السلامة من فأس ذلك الرجل في أي جحر، حتى أنه يفهم من التنكير أنه لم يكن جحر لها بالضرورة، وهذا معروف في طباع الحية فهي لا تتخذ لنفسها بيتاً" وكل بيت قصدت نحوه هرب منه أهله وخلوه لها، فدخلته واثقة بأن ذلك الساكن بين أمرين: إما أقام فصار طعاماً لها فاقامت فيه ساعة" [2]. ولذا تمثلوا بها في الظلم فقالوا" أظلم من حية" [3] وقالوا أيضاً: "وأضل من حية"[4] لأنها إذا خرجت من جحرها ثم وجدت آخر دخلته ولم تعد للأول. ونجد في ذلك اتفاقاً وثيقاً بتشبيه صلى الله عليه وسلم (الإيمان بالحية)؛ فالمقصد من التشبيه هو إظهار الهيئة التي تكون عليها العودة للاحتماء.

وعودة أخرى إلى قوله: (فقام من فوق جحر مشيد) وأنظر كيف نسب الصحة والخطأ في العقل إلى الكف ذلك أن الجوارح تمثل صورة النوايا وقد ذكر الكف وهو يقصد الرجل باعتبارها الأداة المنفذة لمقصده وهو من باب ذكر الجزء وإرادة الكل لينتقل بعد ذلك إلى

---

[1] لسان العرب (أرز).
[2] ثمار القلوب 627/2.
[3] المصدر السابق.
[4] التمثيل والمحاضرة 377.

الجزء الأخير من الحكاية والذي بدأه بقوله:

فلما وقاها الله ضربة فأســـه	وللبرعين لا تغمضُ ناظـــــــــره
تندم فلما فاته الدحل عندها	وكانت له إذا خاس بالعهد قاهرة[1]

فإن قوله: (وقاها الله) وقد نسب الشاعر الوقاية لله عز وجل ليشير بذلك إلى أن للخير قوة تحميه لا تعلوها قوة، وأن الشر مهما كثرت أدواته فإن له حداً يقف عنده، ولذلك أتبع الشطر الأول في قوله: (فلما وقاها الله) بتذييل لطيف يؤكد هذا المعنى وذلك حيث قال: (وللبر عين لا تغمض ناظرة)، فجعل للبر عيناً على سبيل الاستعارة التصريحية ثم تنبه إلى أن هذه العين قد يعتريها النعاس والغمض فقيد الكلام بقوله: (لا تغمض ناظره). ثم اتبع هذا ليقول (تندم لما فاته الذحل) وقد بنى فيه معناه على سابقه فطالما أن الله هو الواقي وأن عين البر ساهرة لا تغمض كان لابد أن يكون الندم وكان لابد أن يقع عليه القهر (وكان له إذ خاس بالعهد قاهرة) وقد قصد بقوله: (لما فاته الذحل عندها) الثأر الذي له عندها لأخيه المفقود وقد أشرنا إلى أن النابغة تعمد إغفال الحديث عن الجزء الأول من حكاية تلك الحية مع ذلك فإن هذا الرجل نقض العهد برغم أنه كان يستوفي العقل، وفي ذلك صورة من صور الخسة والطمع، وقد أراد أن يجمع بين الثأر والدية وقد دفعه إلى ذلك التجني طمعه وقيل: "التجني وجه القطيعة" [2] . وقال كعب الأحبار:

وما زلت أسمع أن العقول مصارعها بين أيدي الطمع [3].

---

[1] المعاني الكبير 671/2.
[2] ربيع الأبرار ونصوص الأخبار 740/1.
[3] المصدر السابق 767/2.

وقد الطمع بالرجل إلى الندم؛ الذي لم ينفع من بعده الإصلاح وهذا ما يظهره قوله:

تندم لما فاته الدحل عندها   وكانت له إذا خاس بالعهد قاهرة
فقال: تعالي نجعل الله بيننا   على ما لنا أو تنجزي لي آخـــرة

فقد أراد أن يستبقي الحال على ما هو عليه لتعطيه من المال كما كان الحال السابق أو أن تنجز له ما تبقى من دية أخيه كاملة. وتأمل قوله تعالى (نجعل الله بيننا) وكيف يطلب منها العودة إلى حكم الله وقد خان هو ميثاقه فيها وهو يقصد بذلك استبقاء ما فوته على نفسه من مال بغدره ونكثه بالعهد، وكأنه يعكس صورة قومه معه وقد جاروا عليه لتوهمهم أنه قد كبر، وقل ناصره وما عاد ذلك الشاعر الذي يسترفد الملوك ويقضي حوائج قومه، وكأن النابغة يقول لهم إنه ما زال الشاعر المقتدر والسيد المطاع إذا لم يكن فيهم ففي غيرهم من العرب ممن جمعتهم بهم صلة المودة والوفاء أكثر مما جمعته بقومه، وأنهم سوف يدركون مقدار خطئهم لطرده وإبعاده وهذا ما تجسد كلمة (قاهرة) في قوله: (وكانت له إذا خاس بالعهد قاهرة) كما يشير قوله: (فقال تعالى نجعل الله بيننا) إلى بقايا الطمع التي انبعثت في نفوس قومه من جديد بعد أن تبين لهم أنهم لن ينالوا من طرد شاعرهم إلا المسبة والضعف وكأن النابغة في هذه الحكاية يتنبأ بما سيؤول إليه أمر قومه من خلال خاتمة الحكاية:

فقال: تعالي نجعل الله بيننا   على ما لنا أو تنجزي لي آخره
فقالت: يمين الله أفعل أنني   رأيتك مسحوراً يمينك فاجرة

إلا أنه لن يكون لهم ذلك السيد الذي يسعى في حوائجهم ويبذل لأجلهم حتى ولو عادوا عن غيهم لأنه يدرك أن دافعهم إلى ما فعلوا (الحقد والحسد) لا يزال باقياً فيهم حتى لو أعادوه إلى ديارهم واعتذروا عما فعلوا به وهذا ما تلمح إليه الأبيات الأخيرة في القصيدة

حتى ترفض الحية تجديد المواثيق لأنها لم تجد في صاحبها إلا عقلاً معيباً ويميناً فاجرة ولذلك ختم الشاعر قصيدته يقول (فقالت يمين الله أفعل) أي يمين الله لا أفعل فحذفت لام النفي لضرورة الوزن. وقد ختم الشاعر الحكاية بما يدل على اعتبار الحية واتعاظها بفعل صاحبها معها وكيف أنها رفضت الصلح وتجديد المواثيق بعد تعرضها للموت المحقق.

أبي لي قبر لا يزال مقابلي وضربة فأس فوق رأسي فاقره

نتائج البحث

ذكرنا في مقدمة هذا البحث أن تناول النابغة لصور الحية من خلال قالب الحكاية – مع ندرتها أصلاً في الشعر الجاهلي – يعد من الغريب المنقطع النظير؛ فما الذي دعا النابغة إلى تمثل صورة هذا المخلوق (الحية) ليشبه بها حاله مع بني ذبيان؛ وليصور ما جرى بينه وبينهم من خلال صور (الحية) دون غيرها من المخلوقات؟ وما الذي دعاه إلى تقديم موضوع القصيدة من خلال قالب الحكاية دون الأسلوب المباشر في التناول؟ ويُعد هذان السؤالان المحور الذي تدور حوله هذه الدراسة وتتضح إجابة السؤال الأول مما يلي:

أولاً: لقد ارتسمت صورة (الحية) منذ القديم على أنها رمز للشرور والضرر؛ وقد تحققت هذه الصورة من خلال تفاعل هذا المخلوق (الحية) مع باقي حيوانات بيئته أيضاً، حتى أننا وجدنا العرب تقول: "ليس شيء أظلم من الحية، لأن الحية لا تتخذ لنفسها بيتاً، وكل بيت قصدت نحوه هرب منه أهله وخلوه لها فدخلته، واثقة بأن ذلك الساكن بين أمرين: أما أقام فصار طعاماً لها، وإما هرب فصار البيت لها فأقامت فيه ساعة"[1] ولذلك ضربوا المثل بها في

---

[1] ثمار القلوب 627/2.

الظلم فقالوا: "أظلم من حية"[1]. وعندما يشبه النابغة حاله مع قومه بالحية؛ ثم يذكر ما ناله من ظلم على أيديهم فهو بذلك يرسل إلى قومه رسالة مفادها أنهم بلغوا حداً فاقوا به كل أحد حتى أن الحية التي هي مضرب للمثل في الظلم لا تستطيع مجاراتهم في ذلك؛ وهذا من التعريض الذي لا يخفى على متذوق فطن؛ وقد جاء في هذا القبيل مضرس بن لقيط[2]

لعمرك إني لو أخاصـــــم حية إلى فقـــعس ما أنصفتني فقعس
إذا قلت مات الداء بيني وبينهم سعى حاطب منهم لآخر يقبس

أي أنه لو احتكم إلى بني فقعس في خصومة، بينه وبين (حية) – وقد عُرف أنها مضرب المثل في الظلم فظُلمها بيِّن واضح – لما أنصفه بنو فقعس فكأنهم قد بلغوا حداً من الظلم لم يبلغه أحد سواهم؛ حتى تلك الحية؛ وكذلك النابغة في تشبيهه لنفسه بالحية؛ كأنه يقول لقومه لقد بلغتم حداً من الظلم لا يستطيع بلوغه أكثر الناس ظلماً؛ حتى أن الحية التي ضُرب بها المثل بشدة ظلمها تعجز أن تدانيكم في الظلم أو أن تنتصف لنفسها منكم؛ وفي هذا قدر من التبكيت والتوبيخ والتقريع لا مزيد عليه.

ثانياً: نجد في تشبيه الشاعر حاله مع قومه بالحية دلالة أخرى تظهر من خلال ما وصفت به الحية، والتقاء ذلك الوصف مع غرض الشاعر من التشبيه؛ وأقصد هنا صفة (الحلم) فقد ضربوا المثل بالحية في معنى الحلم؛ فقالوا "أحلم من حية" [3]؛ وقد ورد في بعض كتب الأخبار

---

[1] الحيوان 150/4.
[2] المصدر السابق 151/4.
[3] عيون الأخبار 71/2.

نقلاً عن الإنجيل أن المسيح عليه السلام قال للحواريين: "كونوا حلماء كالحيات" [1]. وفي ذلك دلالة تلتقي مع حال الشاعر، بل إن صبره تجاوز إلى غض النظر عن إيذائهم له واتهامه في نسبه؛ وطرد ابنته عقرب التي كانت تحت يزيد بن أبي حارثة، ومع ذلك لم نجده يبادر بالرد عليهم وتقريعهم – دون أن يهجوهم – إلا بعد أن محشوا له المحاش وهموا بطرده من ديارهم.

ثالثاً: لقد ارتبطت صور الشاعر في العصر الجاهلي –دائماً– بمعنى القوة والسطوة؛ لذا كان لسان القبيلة والمدافع عنها ومدون تاريخها؛ ولذا كانت القبيلة تحتفل إذا ظهر شاعر فيها؛ كانت القبيلة تحتفل إذا ظهر شاعر فيها؛ وكم من القبائل عزت وتفاخرت بسبب قصيدة أو بيت؛ وليس ببعيد عن أذهاننا قبيلة (أنف الناقة) التي كان الرجل منها يستحي أن ينتسب إليها لما يحمله اسمها من معنى يبعث على السخرية والتحقير؛ حتى مدحهم شاعر بيت شعر واحد قال فيه:

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ... فهل تسوي بأنف الناقة الذنبا

فأصبح الرجل منهم يفخر بأن يقول: أنا من أنف الناقة؛ إذا سئل عن قبيلته ومثل هذا كثير في تراثنا القديم وهو مما لا يكاد يحصر؛ وهو يظهر في أقرب صوره وأبعدها مقدار المكانة التي اكتسبها الشاعر في ذلك العصر؛ حتى أننا نجد ذكر أولئك الشعراء باق إلى يومنا من خلال شعرهم وكأنهم خلدوا به ولأجله؛ وإن كان هذا مما يصح على الشعراء عامة؛ فإنه يشمل فحولهم بلا شك وفي مقدمتهم النابغة؛ ولا ريب أن شعراء ذلك العصر كانوا يدركون ما لهم من قيمة في مجتمعاتهم؛ وهم لذلك يرون أنفسهم في طبقة ترتقي بهم عن غيرهم من الناس؛

---

[1] المصدر السابق 72/2.

فإذا أخذنا هذا الواقع ووعيناه، سهل علينا استشفاف رابط خفي يبين سبب اختيار النابغة لصورة الحية ليشبه نفسه بها دون غيرها؛ وبيان ذلك يظهر فيما ارتبطت صورة الحية في موروثنا الثقافي ومنذ العصر الجاهلي حيث ارتسمت صورتها بالخشية والمهابة أكثر من غيرها من الحيوانات؛ وما نسج حولها من حكايات تدل على القوة الخارقة التي تلامس في أكثرها نطاق الخرافة؛ وقد كثرت الأخبار عنهم في هذا الباب ومن ذلك ما ذكرته كتب الأخبار من مذاهب العرب وأنهم "كانوا إذا قتلوا الثعبان خافوا من الجن أن يأخذوا بثأره فيأخذون روثه ويفتونها على رأسها ويقولون روثه راث ثائرك.. وقد يذر على الحية المقتولة يسير رماد ويقال لها قتلك العين فلا ثائر لك.... ومن أعاجيبهم أنهم كانوا إذا طالت علة الواحد منهم وظنوا أن به مساً من الجن لأنه قتل حية.. عملوا جمالاً من طين وجعلوا جُوالق وملأوها حنطة وشعيراً وتمراً. وجعلوا تلك الجمال في باب جحر إلى جهة المغرب وقت غروب الشمس وباتوا ليلتهم، فإذا أصبحوا نظروا إلى تلك الجمال الطين فإذا رأوا أنها بحالها قالوا: لم تقبل الدية فزادوا فيها وإن رأوها قد تساقطت وتبدد ما عليها من الميرة قالوا: قد قبلتْ الدية واستدلوا على شفاء المريض وفرحوا وضربوا بالدف"[1] . وقد انعكست هذه المهابة والخشية في الأسماء التي أطلقوها على الحية؛ ومنه "الإلاهة"[2] و"الجان"[3] و"بنت الدواهي"[4] و"داهية الغَبَر" كنيت بذلك لأنها سكنت بقرب ماء؛ إما غدير وإما ماء عين فتحمي ذلك الموضع[5] ؛

---

[1] بلوغ الأرب 358/2.
[2] معجم أسماء الأشياء 73.
[3] حياة الحيوان 392/1.
[4] معجم أسماء الأشياء 73.
[5] المعاني الكبير 671/2.

ولذا ضربوا المثل بها للرجل المنيع فقالوا "حية الوادي"[1] ، والعرب تسمي كل حية شيطاناً[2]؛ فأنظر إلى كل هذا وغيره من معتقداتهم التي وصلت إلى درجة القول بأنهم "لم يجدوا حية ماتت حتف أنفها وإنما تموت بالأمر يعرض لها" [3] ؛ وكل هذا وغيره يجعل للحية صورة محاطة بالمهابة والخشية والغموض؛ وهي تقابل صورة الشاعر في ذلك الزمن حيث كان ينظر إليه كأنه خُص بقدرة بيانية أشبه ما تكون بالسحر وهي ملتبسة بالغموض عند عامة الناس لأنهم يجهلون كنه منبعها، وسبب تجليها؛ هذا يوافق صورة النابغة كشاعر منقطع النظير، وكسيد عظيم لقومه.

لماذا صيغت القصيدة من خلال قالب الحكاية دون الأسلوب المباشر؟

لن يجد الباحث في ديوان النابغة قصيدة واحدة هجا بها النابغة بني ذبيان على وجه العموم؛ وإنما هجا بعض الأشخاص بذواتهم دون أن يجعل سبب هجائه له أنهم من بني ذبيان؛ وفي ذلك تحرز واضح يبين تعمد الشاعر الابتعاد عن النيل من سمعة القبيلة؛ وهذا حرص يؤكد صحة انتساب الشاعر إلى تلك القبيلة؛ ودون أن يكون هجاءه لهم راجعاً إلى كونهم من قبيلة بني ذبيان، رغم أن هذا هو الشائع في الهجاء؛ فلطالما تناول الشعراء أعراض مهجويهم من خلال القدح في قبائلهم؛ وهذا ما لم يفعله النابغة للسبب الذي ذكرت؛ ولقد ساعدت صياغة القصيدة من خلال صياغتها في قالب الحكاية – النابغة على هذا القصد؛ ذلك أن تناوله لموضوع القصيدة بصورة مباشرة قد يضطره إلى القدح في أخلاق وأعراض وسمعة أبناء القبيلة؛ لأنه سيكون مضطراً – من خلال الأسلوب المباشر – إلى التعرض لأسماء بعينها؛

---

[1] ثمار القلوب 623/2.

[2] الحيوان 300/1 .

[3] المصدر السابق 157/4.

وليس لسلوك أو خلق معين؛ وهذا ما حدث في هجائه ليزيد أبي حارث زوج ابنته؛ وقد أفرده بالهجاء المباشر دون غيره؛ لأنه كان سبب المشكلة والباعث لها، وذلك حيث يقول:

جمع مـــحاشك يا يزيد فإنني	جمعت يربوعاً لـــكم وتمـــيما
ولحقتَ بالنسب الذي عيرتني	وتـــركتَ أصلاً يا يزيد ذميما
عيرتني نســـب الكرام وإنمـــا	فخر المفاخر أن يعــــد كريما
حدبتَ على بُطون ضنة كلُهـــا	إن ظالمًا فيهـــــم وإن مظلوما
لولا بنو عوف بن بُهثة أصبحت	بالنعف أم بني أبيك عـــقيما [1]

ولكن عندما كان الخطاب موجهاً إلى القبيلة كلها ابتعد النابغة عن هذا الأسلوب المباشر وأبدله أسلوباً مغايراً؛ لأنه يخاطب قبيلته، ولو وجه الكلام مباشرة لكان في ذلك مدعاة للنيل من مآثر وأمجاد وسمعة عطرة هو منْ خلدها لبني ذبيان بشعره؛ فكيف ينال منها الآن بشعره؛ فضلاً عن أنه ينال بذلك من نفسه أيضاً؛ وهذا ما قصده كعب بن جعيل بقوله[2] :

ندمت على شتم العشيرة بعدمـــا	مضى واستتبت للرواة مذاهبه
فأصبحت لا أستطيع رد الذي مضى	كما لا يرد الدر في الضرع حالبه

وليس هذا بالأمر المستبعد أو المستغرب في ذلك الزمن؛ ذلك أن التجرؤ على النيل من القبيلة وهي مستوعب الشاعر واصله خطأ يعقب ندما لا يزول، لأنه ما أن يذيع بين الناس حتى يكون مسبة جرها أحد أبناء القبيلة على قبيلته؛ وهذا ما لا يرضاه الرجل من العامة

---

[1] ديوان النابغة الذبياني – تحقيق: ابو الفضل 102.

[2] ربيع الأبرار ونصوص الأخبار 750/1.

لنفسه ولقومه فكيف يكون الحال بالسيد المقدم فيها وقاضي حوائجها؛ هو يدرك أن هذا الفعل قد يعود بالضرر عليه هو قبل غيره؛ فنيله من قبيلته نيل من نفسه قال الشاعر[1]:

وبعض انتقام المرء يزري بعرضه   وإن لم يقع إلا بأهل الجرائم

أصل هذه الحكاية في تراث العرب:

ذكرنا في بداية تحليل قصيدة النابغة أصل الحكاية، وأنها قامت على مثل من أمثال العرب بني على حكاية من حكاياتهم، ولقد نسبت بعض الدراسات الحديثة هذه الحكاية إلى أصول غير عربية؛ ومن ذلك ما ذكره كتاب (ملامح يونانية في الأدب العربي)[2] فقد أرجع الحكاية إلى خرافات وجدت لدى (إيسوب) من العصر اليوناني؛ وفي ذلك افتيات لا مبرر له؛ ذلك أننا لم نر عالماً واحداً من علماء العربية يرجع هذه الحكاية إلى أصول غير عربية؛ فقد أشار إليها الضبي بقوله: "كان حديث الحية والفأس مشهوراً من أمثال العرب[3] ، وذكر صاحب الخزانة أن "هذه البيات موقوفة على سمع حكاية هي من أكاذيب العرب؛ قال أبو عمرو الشيباني وابن الأعرابي: وكان حديث الحية والفاس من مشهور أمثال العرب"[4] ؛ وكذلك ذكر الميداني في مجمعه[5] ؛ وقد دل قول ابن قتيبة–وقد مر بنا– أن مثل هذه الحكاية لا يستبعد أن تكون أصيلة الجذور في تراث العرب؛ فقد: "كانت العرب تضرب أمثالاً على ألسنة

[1] المصدر السابق 601/1

[2] ملامح يونانية في الأدب العربي 73.

[3] أمثال العرب 178.

[4] خزانة الأدب 418/8، 419.

[5] مجمع الأمثال 27/3.

الهوام"[1]؛ وبذا يكون الابتعاد إلى جذر أبعد من ذلك مما لا يقبل ولا يتصور؛ وهل كان من المتعذر على علمائنا أن ينسبوها إلى (إيسوب) على أن يقولوا: أنها كانت من أكاذيب العرب؟!

---

[1] الشعر والشعراء 161/1.

أهم المصادر والمراجع

1- أبو الحسن بن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تحقيق عبد العزيز بن ناصر المانع، مطبعة المدني، القاهرة.

2- أبو محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الكتب والوثائق القومية، 1966.

3- ابن منظور، معجم لسان العرب، ط2 ، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت.

4- أبو الفضل أحمد الميداني، مجمع الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

5- أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

6- اللبابيدي أحمد بن مصطفى الدمشقي، تحقيق: أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة.

7- أبو عبيد الله محمد المرزباني، تصحيح وتعليق د. ف. كرنكو، دار الجيل بيروت، ط1، 1991.

8- إحسان عباس، ملامح يونانية في الأدب العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

9- أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، التمثيل والمحاضرة، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، الدار العربية للكتب، 1983.

10- أبو منصور عبد الملك النيسابوري، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: إبراهيم صالح، دار البشائر دمشق، ط1 ، 1414هـ

11- أبو المنذر هشام بن محمد السائبي الكلبي، جمهرة النسب، تحقيق: نادي حسن، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، ط1، 1407هـ، 1986.

12- أبو يوسف، يعقوب بن السكيت ديوان النابغة الذبياني، ، تحقيق: شكري فيصل، دار الفكر.

13- الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، إشراف محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

14- الفضل بن محمد الضي،أمثال العرب، ، تقديم إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، ط2 1403 هـ، 1983.

15- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط3 ، 1388 هـ.

16- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ط1 ، 1417 هـ .

17- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط3

18- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع.

19- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تصنيف الإمام محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق سليم النعمي، وزارة الشئون الدينية والأوقاف، العراق.

20- صحيح مسلم شرح النووي، إشراف حسن عباس قطب، دار عالم الكتب، الرياض، ط[1]

21- عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولباب لسان العرب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط[2] ، 1989، مكتبة الخانجي، القاهرة.

22- عبد القادر بن عمر البغدادي، شرح أبيات مغني اللبيب، تحقيق: عبد العزيز رباح وأحمد يوسف الدقاق، دار المأمون للتراث، دمشق، ط[2] .

23- كمال الدين محمد الدميري، حياة الحيوان الكبرى، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط [5]، 1978.

24- محمود شكري الآلوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ، شرحه وصححه محمد بهجة الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت.

25- محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، شرح محمود محمد شاكر، مطبعة المدني.